"فلسطين" و "الفلسطيني" بعيون زائر "هولندي"

كان يسألني دائمًا أين هي فلسطين هذه؟! وحين نلتقي يطرح عليَّ السؤال تلو الآخر عن ماذا أعني بأني فلسطيني؟ وعن إصراري بأني لست أردنيًا ولا إسرائيليًا بل فلسطينيًا أبًا عن جد!!

يسألني هل لي أهل وأقارب يعيشون هناك؟ وهل لهم بيوت يسكنون وينامون ويحلمون فيها كما نحن هنا؟! وهل لدينا مثلهم أطفال ورجال ونساء وشيوخ؟! وهل يتعلم أولادنا وبناتنا في مدارس وجامعات ومعاهد؟! وهل لدينا ديمقراطية، ونحترم الأحزاب والمؤسسات المدنية؟! وحين يكون الجواب بنعم، وأزيد عليها بأننا أمّة بشعب كامل الأوصاف.. وبشر بدم ولحم.. ونولد بعد حمل لتسعة أشهر من بطن حرة.. ولدينا أرض ورثناها من آلاف آلاف السنين.. وعليها بنينا بيوتنا التي ننام ونحلم ويولد الأمل فيها بفجر جديد يرحل فيه الاحتلال، وتجف دمعة الأم الثكلى، ويعود الأسير من خلف القضبان إلى عائلته.. ويلعب الطفل في حديقة والده بدون خوف من رصاصة طائشة أو مقصودة من جندي احتلال.. ويذهب الفلاح وبالأمل نفسه إلى أرضه، يفلحها ويحصدها بدون جدران عنصرية ولا حواجز ذل.. وأن يكون لنا دولة كاملة السيادة.. ويعود الشتات واللاجئون إلى أرضهم التي ابْتلعت قطعة قطعة.. ويكون لنا حدود يحميها أولادنا بأرواحهم.. يتحرك

الفلسطيني وزواره على بوابات حدودها بدون عوائق أو حصار أو إذلال.. ولا يفتش ألف مرة!! ولا تُلقى حقائبه على الطرقات وبين الحواجز كأنها نفاية، ليبحث عنها في حاوية النفايات هناك!!

حين كان يسمع ذلك، كنت أرى في وجهه علامات استفهام كثيرة!! يتساءل، إذن وإذا كان الوضع كذلك، فأين "إسرائيل" من كل ذلك؟ وأين حقها في العيش كدولة ديمقراطية؟ وأين أرضها التي يعيش عليها شعبها؟ وأين حقها في الحياة والأمن؟ وإذا كان لكم الحق فيما قلت، فلهم الحق في دولتهم أيضًا، وفي حمايتها من محاولاتكم القضاء عليها.. فلماذا ترسلون أطفالكم يفجرون أنفسهم داخل نواديهم وفي أماكن رقصهم وحفلاتهم، وتعكرون صفو حياتهم بانتفاضاتكم و"إرهاب" بعضكم؟!

كنت دائمًا أجد الإجابات لكل ما يسأله بالمنطق والبرهان، لكن كانت عندي القناعة أن الغربي بشكل عام، والأوروبي بشكل خاص لن يغير من قناعة تراكمت منذ طفولته وفي مدارسه وجامعاته، ولا يمكن أن يغيرها صدمة الواقع وملامسة المعاناة.. خاصة أنه كان لا يستمد أخباره ومعلوماته إلا من مصدر واحد لا يعرف الحياد، بل يتباهى بأنه مؤيد ومناصر لدولة الاحتلال وأمنها!

بعد أعوام على معرفتنا، سنحت الفرصة لزائري الهولندي هذا أن يرافقني إلى الأراضي المحتلة.. فقمنا بزيارتها معًا في عام ٢٠٠٦م.. وحرصت أن لا يسافر من خلال مطار اللد، بل أن يرافقني في رحلة المشقة ومن خلال الجسر "معبر الكرامة".. كنت أود وأطمح أن يرى

الواقع بعينه، لا بعيني أنا.. فكانت مواجهته الأولى على الجسر نفسه، والذي يواجه الفلسطيني فيه صنوف الإذلال والعقبات.. وإذا به وهو الهولندي يتعرض للمساءلة والاستجواب.. وسيل من الأسئلة عن أسباب قدومه إلى الأراضي المحتلة ومن خلال المعبر وليس من خلال مطارهم، وماذا يريد من زيارته؟ وكان عليه الانتظار والملل بدون سبب يعرف!!

انتهت إجراءت التدقيق والمسائلة.. وركبنا الباص لندخل الأراضي الفلسطينية، لتقع عينه على بيوت بنظام أوروبي تحتل قمم التلال والجبال، وتطل في معظمها على بيوت بسيطة ومتواضعة.. سألني ما هذه؟ قلت له: هذه هي المستوطنات التي سيطرت على معظم أرضنا ومياهنا وهوائنا!!

مشينا في الطريق إلى هدفنا، وكل ما توقفنا عند حاجز احتلالي، يسألني: لما كل هذه الحواجز والتدقيق؟ أجيبه بأنه سؤال مهم، لكن الجواب عندهم كمحتلين، وليس عندي كفلسطيني!! وحين لمح شيئًا كالثعبان بين أوراق أشجار الزيتون، سألني ما هذا؟ قلت هذا ما يسمونه الجدار العازل، وهو جدار الفصل العنصري بمعنى الكلمة.. هذا الجدار الذي قضى على الأرض وعلى أي فرصة للتواصل.. وقضى على آخر مصدر رزق للإنسان الفلسطيني.. سألني حين رأى طابورًا طويلاً على حاجز، ما هذا؟ قلت هذه طوابير سيارات وباصات تحمل طلبة جامعات ومدارس يمرون كل صباح في سلسلة إجراءات طويلة ومذلة ليصلوا إلى مدارسهم وجامعاتهم!! قال: وأين الدولة

الفلسطينية التي نسمع عن وجودها، ويتباهى العالم أنه منحها للفلسطينين؟ فلم أرى إلا جنودًا إسرائيلين مدججين في كل مكان!! ولم أرى الفلسطيني إلا وهو على طابور حاجز أو خلف جدار يفصل بينه وبين أخيه.. وأرضه مستباحة بالمستوطنات!! ولم أرى أي علامة لسيادة دولة! قلت آسفًا.. هذا هو الواقع.. وهذا ما لم تراه أبدًا على شاشات إعلامكم وصفحات جرائدكم.. هذا هو الفلسطيني، بالرغم من المستوى العالي لكل من قابلتهم في زيارتك.. وهذه هي فلسطين الواقع الملموس.

عاد هذا الزائر بعد عدة أيام من زيارته لفلسطين المحتلة إلى وطنه، وأنا أشعر أنه أصبح فلسطينيًا روحًا وقلبًا.. عاد وهو يحمل عن فلسطين والفلسطيني صورة أخرى.. صورة بعيون زائر هولندي صُدِمَ بما رأى ولمس وسمع!!

نشرت في دنيا الوطن والعروبة – ٢٠٠٩ م

"فتح" و "حماس"

واتفاق مصالحة على مائدة "مواطن"

أنا مواطن عادي.. وفي رمضان يكون إفطارنا عاديًا وبسيطًا، وعلاقتي مع الجميع عادية ويسودها الاحترام المتبادل.. ولم أتوّقع يومًا أن يكون على مائدتي أناسًا رفيعي المستوى، ولم يخطر ببالي أن يكون بيتي ومائدتي البسيطة مكانًا للقاء هام أو اتفاق بين متخاصمين اثنين! فكيف إذا توسّطت مائدتي في تلك الليلة، وعلى يميني سبعة من قيادات حماس، وعلى يساري سبعة من حركة فتح وكأنها معجزة!!

لم أتوقع أن يلبي أحدًا دعوتي المتواضعة، والتي أرسلتها إليهم في لحظة ثورة، وأنا أرى الإخوة يتصارعون مع الهواء.. يحاولون طحن الأعداء كلٌ بطريقته، وإذا بهم يطحنون الأبرياء، ويخفون الجمر تحت الرماد، ويمشون كلٌ إلى ما لا يُعرف عقباه!!

تلعثمت وأنا أرحب بهم على مائدتي، ولم تكن الكلمات لتخرج من فمي، لولا أنني رأيتهم جميعًا يتبادلون المزاح والبسمات، وكأنهم أخوة التقوا بعد سفر طويل.. استقويت وأنا أتخيل أنني أجالس عائلتي، وليس أولئك الذين نراهم على شاشات التلفاز يزمجرون ويهددون!!

قلت وبعد لحظة صمت قصيرة: ما دمتم لبيتم دعوتي، فإذن النية صادقة بإنهاء الانقسام والشقاق.. لتكن فرصة شهر رمضان الكريم مناسبة للمصالحة والاتفاق للعودة إلى العمل من أجل فلسطين فقط، وليس من أجل حزب أو جهة..

هنا تدخل أحد قيادات فتح وقال: نحن من صنعنا العمل والثورة لأجل فلسطين.. ونحن من ضحّينا وقاومنا.. وهم ما كانوا ليحصلوا على الأغلبية في آخر انتخابات، إلا بعد أن صوّت لهم الكثير من قاعدتنا الشعبية، وبعد أن نزل مرشحون كُثر من كوادرنا على أنهم مستقلون!!

فرد عليه أحد قيادات حماس وبحدة، نعم هذا صحيح لأن معظم من صوَّتَ لنا من فاض به من فسادكم وأخطائكم!! حينها وجدت نفسي مضطرًا للتدخل، لكن ليس لأعَبِّرَ عن رأيي كمواطن، بل وكأنني الشعب كله.. فصرخت في وجوههم جميعًا.. يكفي، يكفي، يكفي فكل بني آدم خطاؤن.. وكلنا الآن نخسر، أنا وأنتم والشعب كله.. فعلينا أن ندرك أن قضيتنا ضاعت بين رأي هذا وذاك.. الإنسان الفلسطيني تحمّل الكثير، وما زال ينتظره الكثير من الاحتلال، ومن انقسامكم ومن ظروف الحياة التي لا تحتمل.. وأنا كمواطن عادي، لديَّ مجموعة من العناصر تصلح لاتفاق يمكن أن يُوقع الليلة وفي هذا اليوم الفضيل وهي كالتالي:

- أن تختار حركة فتح أربعة أعضاء وليكونوا عربًا ممن تثق بهم من علماء ومفكرين وأهل خير، وتختار مثلهم حركة حماس، وتختار الفصائل والمجتمع المدني خمسة أعضاء آخرين.. يكون دورهم عمل

دراسة معمقة في كل من غزة والضفة في مدة أقصاها شهر واحد، للأضرار الناجمة عن الانقسام من شهداء وبيوت متضررة، أو أي ضرر لحق بالأفراد أو المؤسسات وحتى المباني الحكومية، بحيث يتم تقدير هذا الضرر، وليتكلف كل فصيل تسبب بهذا الضرر بتقديم التعويض المناسب الذي تقره هذه اللجنة وحسب الأعراف المتداولة عند العرب..

- خلال ذلك الشهر يتم الإعداد لاستفتاء من سؤال واحد فقط "هل أنت مع إجراء انتخابات شاملة في موعد أقصاه ثلاثة أشهر أم لا؟" بحيث يعلن عن موعدها إن كانت الأغلبية مع إجراءها بعد الانتهاء من هذا الاستفتاء مباشرة..

- تقوم اللجنة ذاتها بمتابعة موضوع المعتقلين السياسين في الضفة وغزة بشكل متزامن، بحيث يتم الإفراج فورًا عن أي معتقل تُدرس حالته ما بين هذه اللجنة والجهات المختصة..

- إذا كانت الإجابة في الاستفتاء "نعم" فعلى الحكومتين في كل من الضفة وغزة تقديم استقالاتهم للرئيس، على أن يعلن الرئيس وفي نفس الوقت الموعد المحدد للانتخابات القادمة، أما إذا كانت نتيجة الاستفتاء "لا" فعلى الطرفين اختيار لجنة من ثلاثة عشر عضوًا من كل من الضفة وغزة تكون بمثابة حكومة انتقالية لطرفي الوطن لحين تحديد موعد لانتخابات بمدة أقصاها ستة أشهر من تاريخه.. تكون مهمة هذه اللجنة أو الحكومة الانتقالية إعداد برنامج للحكومة القادمة، تقبل به الأكثرية وتُعاد صياغته بعد الانتخابات بحيث لا تتعارض مع الخطوط العريضة التي اتفقت عليها الأغلبية..

أنهيت سرد عناصر الاتفاق التي أراها حلاً للتوقف عن الدوران في الحلقة نفسها.. ونقاط لو نُفذت لحلت الكثير من الإشكالات، التي وكمواطن أراها عقبة أمام الاتفاق المنشود..

فرحت كثيرًا وأنا أرى الابتسامة تعلو وجوه ضيوفي، وكأنها علامات الرضا وبشرى للاتفاق.. فمددت يدي مصافحًا ضيوفي عن يميني، وحين استدرت لأصافح ضيوفي عن شمالي، وجدت ابنتي الصغيرة تصافحني ضاحكة متسائلة... ماذا حدث لك أبي ولماذا تصافحني؟ هذه أنا، ابنتك وأجلس كل يوم على يسارك!!

نشرت في دنيا الوطن والعروبة – ٢٠٠٩ م

أحلامنا الضّالة

حَملتنا أمهاتنا وهُن يَحلمن أننا سنكون الأبطال.. ولُدنا وهن يهتفن للأحرار.. للفدائين القابضين على الجمر والزناد.. للذين كانت عيونهم ترى فلسطين الحبيبة، ومن بحرها إلى نهرها خارطة رُسمت في مخيلتهم، وبدون حتى أن يلمسوا ترابها.. وفي كل دقيقة في عمرنا، وفي كل نبضة من قلوبنا، كنا نكرر وفي أنفسنا ولأنفسنا: "فلسطين حرة عربية".. "فلسطين حرة عربية".. لم يعلّمنا أباؤنا أن فلسطين العربية الحرة، هي لفلان أو لعلان من البشر.. ولم نفكر في ذلك.. كل واحد فينا، هي له.. ملكه ونور عينيه.. هي لكل فلسطيني في كل مكان.. هي لكل عربي ومسلم آمن بأن القدس ملتقى الأنبياء ومسرى نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - لم تكن يومًا لأي فصيل، وإن كان حتى هذا الفصيل في قمة ثورته وقوته.. بل كان هذا الفصيل، وكل حركات التحرر الوطني لفلسطين.. لم يكن لمصطلح التقسيم والتجزئة أي مكان في قاموسنا الوطني.. ولم يكن للحق يومًا ورثة يقسم بينهم، لكل منهم حصته فيه.. يلونه ويمنحه جواز سفره!!

لم تكن فلسطين يومًا كرسيًا أو عرشًا أو مملكة من أي لون أو أي صنف.. ولم تكن يومًا حكومة وحدة وطنية أو توافقية أو فصائلية أو تكنوقراط.. ولم تكن يومًا مجرد بقعة أرض أو ضفة من ضفاف نهر،

معزولة عن بقيتها بحواجز وجدران وعقبات، أو قضمة وقطاعًا تستطيع أن تقفز من حدوده إلى حدوده بقدميك!! ولم تكن فلسطين يومًا قرارًا دوليًا يُحدّد برقم ١٨١ أو ٢٤٢ أو ٣٣٨، بل كان ويجب أن يبقى وطنًا مقدسًا، بقداسة أرضه لكل العرب والمسلمين.. يجب على التركي كما السوري، والإيراني كما الأردني والأندونيسي والماليزي، وكل عربي ومسلم على وجه الأرض أن يعود ويطالب بأرضه وبوطنه الأصل فلسطين.. فلسطين هي الوطن الاستثنائي لنا جميعًا كعرب ومسلمين، والذي يجب أن يعلو فوق الجميع..

هذا ما تربيّنا عليه، وما علمه لنا أجدادنا وأباؤنا من بعدهم، حتى جاءنا أولئك الذين بدأوا يقنعوننا بخطأ أجدادنا في تربيتنا! قالو لنا: كان أجدادكم بعيدين عن الواقع.. لم يكونوا ليبراليين ولا براغماتيين!! كان أجدادكم متطرفين في أحلامهم، سطحيين في تفكيرهم، ولم يكن عندهم بُعد نظر للمتغيرات العالمية والدولية!

نحن بواقعيتنا يمكن أن نحصل على جزء من خارطة الوطن التاريخية، ونُقيم عليه دولتنا العتيدة.. سموها إن شئتم "فلسطين"، سنحصل لكم معها على حرية التنقل للشخصيات الهامة، وسنحصل على لم شمل لآلاف العائلات إليها، سنعمل على إنشاء مشاريع ضخمة بالمعونات الغربية، توفر لكم ولأبنائكم الوظائف والدخل المعقول! تستطيعون الذهاب إلى المدارس والجامعات والعمل.. تَستَطيعونَ تَشكيل حكومة وطنية بوزراء فلسطينيين! وشرطة فلسطينية ومخابرات فلسطينية!

تستطيعون أن يكون لكم دَوْلَة مُعترف بها، ونَشيدٌ وطني سِلْمِي، وحَرسُ شَرَفٍ، وأن يكون لكم رئيس دولة!

قلنا لهم: ودِمائنا التي نزفت؟ وشبابنا الذي ضاع دفاعًا عن أحلامنا في دولة مستقلة وقرار مستقل؟ وأولادنا الذين دفـــعناهم إلى حَتْفِهِمْ دفاعًا عن حق عودتنا وحريتنا؟ وجَرْحانا الذين فقدوا أغلى ما يَملكون لِتَكون فلسطين مِنْ رَفَحْ إلى الناقورة وطنًا للجميع؟ وماذا عن أسرَانا في السجون، وأسرانا بين الجدران وبين المعابر؟

أقنعونا بأنَّنا كنا متطرفين في أحلامنا إلى حد بعيد.. أعطونا أمثلة عن رجال كانوا مِثالاً للمُناضِلِ العَنيدِ، وهم يَعْتَرِفون بأنهم آمنوا بالواقعية والقبول بالأمر الواقع..

قلنا لكم فَلْيَكُن.. نحن وراءكم، نؤيدكم ونشد على أياديكم، فماذا حَقَّقنا من واقعيتِنا هذه؟

جُزرًا مُتَباعَدة تَقْطع أوصالها مئات الحواجز والمعابر والممرات.. خَيالُ دَوْلَة بدون دَوْلَة.. ومفاوضات بدون نِهاية، وبلا نَتيجَة.. كلما وصلت إلى نقطة، عدنا إلى البداية من جديد!!

أسواقنا صارت مُجَردَ مُستَقبلٍ لبَضائعَ وسلع لا يُعْرَف مَصْدَرُها، ولا مَدى صَلاحيَتها؟! لا الأسرى خَرَجوا، بَلْ كُلَّ يَوْمٍ في مَزيدٍ.. حَتى الأرض التي كانَت مُتَّصِلَة جغرافيًا، ولو بوَسائل المُواصَلات، أصْبَحت أرضين، وبدون أي وسيلة للتواصل.. حَصَلْنا بَدَلْ حُكومَة واحدة على اثنتين!! وبَدلَ شَعْبٍ واحدٍ على شَعْبَيْن، وبَدل القرار المُسْتَقِل على

ألفِ قرار!! ويبدو أننا كنّا قاسِينَ ونَحنُ نطالب بإزالَة الاسْتيطانِ من على تلالنا وجبالنا، فأصبحنا نحلم بتَجميده وحسب!!

كانَت أحْلامنا كَبيرة وَعَريضَة، بكبْرِ نَكباتِنا ونَكَساتِنا المتكِررة، واليَوْم لم نعد نحلم، وإن حصل وحلمنا، فقد أصبحَتْ أحلامًا ضالة!!

نشرت في دنيا الوطن والعروبة – ٢٠٠٩ م

لـمَا "الهجرة" إلى الشمال؟

لم يكن حلمي ولا قمة طموحي أن أعيش في أوروبـا ولا حتـى أن أزورها. وعندما كتب لي القدر أن أطأ الشمال الأوروبـي وهولنـدا بالتحديد، لعبت الصدفة لعبتها، والحدود المصرية بعادتهـا القديمـة الجديدة حين أعادت طالبًا غزيًا من على بوابتها ومنعته من مواصلة رحلته إلى هولندا، فكنت أنا في مكانه مرشحًا للمنحة الدراسية لعدة شهورهناك. كان مجرد التفكير بالسفر إلى بلد لا يتكلم أهلـه اللغـة العربية يخيفني، ولعل لغتنا الإنجليزية الركيكة هي من أهم الأسـباب الرئيسية لهذا الخوف.. فاللغة الإنجليزية والتحدث بها والطريقة التي تُدَرس بها، وهي طريقة الإنجليزية بالعربية في مدارسنا والحكوميـة بالأخص منها، جعلتنا نتردد حتى في استخدامها ولو وقت الضـرورة القصوى! أضف إلى ذلك أن من كان يدّرسنا هـذه اللغـة العالميـة المهمة هو عادة ما كان مدرس الجغرافيا في المراحـل الإبتدائيـة، ومدرس التاريخ في المراحل الإعدادية، وكذلك في المراحل الثانوية!! ترددَتُ كثيرًا قبل اتخاذ القرار لأكمل مشواري الدراسـي حتـى بعـد تخرجي الجامعي، ولأسباب أقلها أني أعتبر نفسي معجونًا من طينـة بلادي، ولم أتخيل يومًا أن أنام تحت سماء كل نجومهـا تتلإلـىء إلا

لعيون "فلسطين" وأهلها.. لصباياها وصبيانها.. لنسائها ورجالها، للأبطال الثائرين فيها، وللعاشقين لترابها..

كيف لي أن أتأقلم مع جو الرفاهية الجديد، بلا حواجز ولا معوقات؟ بلا مظاهرات ومسيرات وشهداء واعتقالات؟ وأنا الذي تأقلمت ولم أستسلم يومًا للظروف القاسية التي عانيناها وما زلنا في كل لحظة من لحظات الاحتلال التي تواجهنا في حياتنا اليومية.. وهذا ما جعلني لاحقًا وبطريقة عفوية وفي المرة الأولى لانتقالي بين الحدود الهولندية والبلجيكية؛ وهي بالمناسبة لا تظهر للعيان؛ أن أصرخ بالتوقف والنزول من الحافلة، فلم أتعود مطلقًا أن أقطع الحدود بين مدينة وأخرى دون أن أفتّش أو أرفع يدي عاليًا أو أن أنظف الشارع من الحواجز الحجرية أو بقايا الإطارات المحترقة! وبالمناسبة هذا كله كان قبل انفتاح دول الاتحاد الأوروبي على بعضها كما الحال الآن. كان مفاجئًا لي كيف ينتقل المواطن الأوروبي من بلد إلى آخر دون حواجز أو تفتيش وبدون أي نوع من الإهانة والإذلال أو التأخير.

مع كل ذلك، لم يكن سهلاً عليّ أن أترك الأرض التي تقاسمت معي لحظات الفرح، وواستني في لحظاتي القاسية وما أكثرها.. وكان الأقسى عليّ أن لا أكحل عيني بين الحين والآخر بأشجار الزيتون واللوز، التي طالما نظفت جذوعها.. ورتبت أرضها بالفأس. ولا أصعب أن أحرم من أن أدخل تحت شجرة برتقال وهو في موسمه، لالتقط حبة من قطوفها بعد تردد في الاختيار.. ولا أصعب ولا أقسى

أن يترك الإنسان الأرض التي ولد عليها حبه الأول، أو أن يستبدل الطابع الشرقي الآخاذ بطابع غربي مادي جامد، لا حركة فيه ولا جاذبية ولا حتى أي علاقة اجتماعية!

الفلسطيني وأنا لست حالة شاذة منه، مُعرض دائما للهجرة والتهجير واللجوء بكل أنواعه.. حتى أنني أتخيل الفلسطيني دائمًا وشنطة سفره في يده! فما انتقلت أو زرت بلدًا في الغرب أو في الشرق، في الجنوب أو الشمال إلا وجدت قصصًا للفلسطيني مع الهجرة والتهجير، مع المعاناة وعدم الاستقرار.. وما من قصة إلا ووراءها حبكة معقدة تصلح لفيلم درامي طويل، والكثير منها نهايته تراجيدية. ولعل أفضل مثال على هذه النهاية، مثال الفلسطيني الذي بقي يتّنقل من شاطئ إلى شاطئ، ومن ميناء غربي إلى ميناء عربي، وما من أحد قبل استقباله على أرضه حتى غرقت السفينة التي كان على متنها وغرقت كل محاولاته وأحلامه تحت الماء!

لكن هذا الفلسطيني الذي لا يستّطيع أن يُغّيب صورة أرضه عن ذاكرته، يحاول أن يزرع كل الحب الذي منحته أرضه له، ويغرزه في أطفاله وعائلته. ويعتبر أن إكمال مشوار نضاله يبدأ بنجاحه في إنشاء جيل جديد من ذريته مرتبط بحبل لا يقطع بجذورهم الأصلية وبهويتهم الوطنية.. يعتبرهم شجرة زيتون فلسطينية ومن تراب الأرض التي حرثها، غرسها بيديه لتنتج زيتونًا يتحدث باللهجة الفلسطينية ويحلم بالحرية، حتى ولو أنه ولد على أرض غربية ويتكلم لغتها بطلاقة، وفي محيط غريب عن جذوره، فكان مثالاً

يحتذى به، وكان مفخرة لنفسه ولشعبه ولوطنـــه.. فانتصـــر علـــى غربته وعلى كل الظروف الصعبة التي أقلها حرمانه من هواء بلاده، ومن شوق وحنين لا يبرد مهما طالت الهجرة..

نشرت في دنيا الوطن والعروبة – ٢٠٠٩ م

هكذا يحق لنا أن نعيش

كنت في زيارة إلى طوكيو لحضور مؤتمر علمي قبل بضع سنوات، وكان لي ورقة بحثٍ لأقدمها أمام ذاك المؤتمرالذي استمر لمدة خمسة أيام، ولما اقترب الموعد المحدد لمحاضرتي سألني البروفسور الياباني رئيس المؤتمر عن جنسيتي الأصلية ليستطيع تقديمي للحضور، بالرغم من أنني كنت قد سلمته وقبل أيام مختصرًا عن سيرتي الذاتية.. وحين صعدت إلى المنصة فوجئت به يُقدمني على أنني فلسطيني الأصل، هولندي الجنسية قبل أن يقدم سيرتي الذاتية! صدمت أنا من ذلك، لكني صدمت أكثر حين وقف أكثر من ثلاثمائة عالم وطالب دراسات عليا وضيف في القاعة مصفقين، وهو يوضُح لهم أسباب احترامه للشعب الفلسطيني ولنضاله ولقدرة أبنائه على الإبداع والتميز برغم القهر والتضييق الذي يصنعهما (مع كل وسائل الإذلال والقمع) أبغض احتلال وآخر احتلال على الأرض!! شعرت بالعزة الممزوجة بالفخر وأنا أمثل الإنسان الفلسطيني بكل شرائحه وأحلامه.. وخطرت على فكري صورًا متتالية وكأنها سينما بأبعاد ثلاثية لرحلة العذاب التي مررتُ بها ويمر بها وبشكل يومي هذا الإنسان الذي ولد حرًا ومن أم حرة ويعيش والقيد بمخمصيه في كل رحيله وترحاله.. ويُحاصر ويُحارب بكل الوسائل والسبل حتى في لقمة عيشه.

تذكرت الكابوس المتكرر وأنا وغيري من الطلبة حين كنا نتنقل كل أسبوع من قريتنا البعيدة لنصل إلى الجامعة والحواجز الثابتة والطيارة التي كانت تصادفنا وتسرق منا غفوتنا داخل السيارة التي تنقلنا في الصباح الباكر لنصل إلى موعد محاضرتنا الأولى والتي غالبًا ما كنا نخسرها.

تذكرت كأس الاعتقال الذي شربه ويشربه معظم شبابنا، ورحلة المعاناة التي تواكبه، والدروس التي نتعلمها من هذه المعاناة القاسية، والصداقة التي تولد على "أبراش" الخيام وفي غرف الاعتقال، والصبر الذي يُغرز بقدرة الله سبحانه وتعالى في الإنسان الفلسطيني، الذي يعجز عن فهم وإيجاد سبب مقنع لوجوده في الحبس وليمنعه عن فطرته بأن يكون حرًا طليقًا!!

وفي اللحظة نفسها تخيلت نفسي ومعي كل الفلسطينيين وهم ينعمون بالحرية ويعيشون كما كل هؤلاء الذين يجلسون أمامي وينعمون بكل الرفاهية والحرية.. أطفالهم يلعبون في الحدائق العامة والتي تتوزع في كل حارات مدنهم وقراهم، تحيطها الأشجار والورود من الجهات الأربعة، لا الرصاص وغاز الدموع التي تحرم الطفل الفلسطيني دون غيره انطلاقه ورفاهيته، وتجعله يائسًا منغلقًا على نفسه.. لا يفكر إلا بالانتقام والثأر ممن قتل فيه الطفولة وحرمه حريته وأمنه قبل أن يسرق منه براءته.. فالطفل في كل بقاع الأرض يلعب بأرجوحته، إلا طفلنا يلعب دائمًا دور المُطارد الفلسطيني، وطفل آخر يلعب دور جندي الاحتلال! والمُسن الذي يُحترم في كل مكان احترامًا لكبر سنه

فتوفر له كل وسائل الراحة والاهتمام، إلا شيخونا قُدر لهم الكدر والإرهاق مع كل عجزهم وتعب شيخوختهم!!

تذكَرت المرارة التي تقتل الأمل لدينا ونحن نرى مياهنا تسرق بالأنابيب الضخمة من آبارنا الجوفية وعلى مدى الطريق التي نسلكها لتصل نقية عذبة إلى حدائق المحتل ومستوطناته، ونحن نلهث وراء قطرة الماء لنبل رمقنا في صيف بلادنا الجاف!!

قلت لنفسي حين أفقت على رئيس المؤتمر وهو يطلب مني البدء بمحاضرتي: يا عالم.. يا حضور.. لِما يقبل العالم استعبادنا من أحد وقد ولدتنا أمهاتنا أحرارًا؟ لماذا الغبن والظلم الذي يسلط علينا ما دمنا نستحق كل هذا الاحترام؟ ألا يحق لنا أن نعيش ونشرب الماء النقي؟ ألا يحق لنا أن نسبح في بحرنا ومياهنا بدل أن نسبح في مياه المستنقعات والمياه العادمة؟ ألا يحق لنا أن نتنفس الهواء النقي كباقي البشر بدلاً من أن نستنشق الفسفور الأبيض والأسود؟ فأجبت - لكن أيضًا في نفسي قبل أن أبدأ: يحق لنا كل شيء، وأن نكون شعبًا طليقًا يُبدع في كل مكان وعلى كل أرضٍ لأننا أحرار وولدنا أحرارًا.. لكن يا للمرارة هل من أمل أن يتحقق ذلك؟ فهذا حقنا وهكذا نستحق أن نعيش..

نشرت في القدس العربي، دنيا الوطن والعروبة – ٢٠٠٩ م

كيف نقطف الثمار قبل الانتصار؟

يقال إنه وفي قديم الزمان كان هناك مملكة صغيرة يحكمها سلطان معروف بغناه وبازدهار مملكته، فكان يزورها التجار وغيرهم من جميع أنحاء المعمورة، للتجارة والتمتع بين أرجاءها.. ومرة زارها تاجرُ معروف وكان صديقًا لسلطانها، وعند لقاءه السلطان نصحه أن يضيء مملكته بدلاً من العتمة التي كانت تُكدر على الزوار بعد المغيب، وتُقلل من قيمة المملكة التجارية وسُمعتها الجميلة.. فَرَاقَ الأمر للسلطان، وأمر قائد حرسه بإضاءة المملكة وأعطاه لذلك ثلاثين ألف ليرة ذهبية.. فأمر قائد الحرس رئيس وزراءه بإضاءة المملكة وأعطاه عشرين ألف ليرة ذهبية!! فأمر رئيس الوزراء قائد الشرطة بنفس الأمر وأعطاه عشرة آلاف ليرة ذهبية!! فقام قائد الشرطة بأعطاء أوامره إلى عناصره أن يطرقوا على كل باب في المملكة وبأمر السلطان أن يضيء كل بيت على شباكه شمعة طوال الليل، فأضاءت المملكة وفرح الجميع حيث أصبح ليل المملكة مضيئًا دون أن ينتبه أحد كيف أضاءت وعلى حساب من؟!

حالنا كعرب بشكل عام وكفلسطينيين بشكل خاص لا يختلف كثيرًا عن حال سكان هذه المملكة، وإن اختلفت الأزمان وإن تغيرت الشخوص، فالفساد وبكل أنواعه صار ظاهرة عادية، بل بالعكس يتباهى به

الكثيرون، وصار مرضًا مزمنًا ينخـــر أجســـادنا وثروتنـــا الوطنيـــة، وأضحى العائق الأول لنهضتنا ورقينا.

المصيبة الكبرى أن هذه الظاهرة باتت تمس المواطن العادي العـــاجز وفي ظل الظروف القاسية التي يعيشها، وفي ظل وضـــع اقتصـــادي يعتمد فيه ما يقارب من ٨٥% من سكان قطاع غزة على المساعدات الإنسانية حسب إحصائية الأمم المتحدة الأخيرة، فتدفع هذا الإنســـان إلى حافة الكارثة، لكنها في نفس الوقت لا تحرك طرقًا فـــي أولئـــك الذين أصبحت مصائب الناس وعَوزهم مصدرًا لثرواتهم وكنوزهم!!

يخطئ البعض حين يظن أن الفساد له لون واحد وهو الفساد المادي وبمعنى سرقة المال العام، لكن للفساد ألوان متعددة نلمـــس بعضـــه بشكل واضح في حياتنا اليومية ولا نلمس غيره لعدم وضـــوحه أو لا يمكننا إدراكه، ومنه الفساد الإداري والاجتماعي اللـــذان لهمـــا دور سلبي على تطور المجتمع وتماسكه.

أما أخطر ما في الفساد والذي يكاد يفتت مجتمعنا الفلســـطيني هـــو "الفساد الفصائلي"، والذي يتسم بالعمق والتجذر، وأخشى ما أخشـــاه أن يدمرنا ومعنا قضيتنا العادلة في التحرر والاستقلال.. فلا أرى أكثر من التعصب الفصائلي فسادًا، ولا أرى أكثر من اســـتغلال أي إنجـــاز وطني سواء للمقاومة أو للسياسة للمصـــالح الشخصـــية والفئويـــة وحتى الفصائلية إلا الفساد بعينه، وكأن "فلسطين" الأرض والإنســـان والهوية أصبحت قضية ثانوية، والفصـــيل أو الشـــخص الفلانـــي أو الحزب العلاني أهم وأولى!! فهل لذلك اسما آخر غير"الفساد"؟ والأهم

من ذلك كيف لنا أن نطلب قطاف الثمر خاصة في حواراتنا القائمة الآن، سواء في القاهرة أو في غيرها لحساب هذا الطرف أو ذاك، ونحن لم ننجز أي انتصار، خاصة بإنهاء الاحتلال الجاثم على الأرض التي نختلف على توزيع حصتنا عليها؟ وهنا أنوه إلى رأي بعض القيادات الفصائلية والذين نُكن لهم كل الاحترام والتقدير لكن نختلف معهم في الطرح والتقدير.. خاصة أولئك الذين يطرحون علينا أمثلة "كالشين فين" والحالة في "جنوب أفريقيا"، وكيف أن هؤلاء الذين ناضلوا لسنوات للحصول على حقوقهم، فنقل فيهم أنهم صحيح استثمروا مقاومتهم سياسيًا وجنوا ثمار نضالهم وكفاحهم الطويل سياسيًا، لكنهم في النهاية وبعد الانتصار - لا قبله جعلوا الإنسان الأيرلندي والجنوب أفريقي هو من حصد هذه الثمار وليس فقط أحزابهم وقياداتهم، وهنا الفرق بين حالتهم وحالنا!!

خوفي الأكبر هو فقدان هذه الفصائل لثقة هذا المواطن الذي مِن المفروض أن يتعالى الجميع لأجله، مما يجعله يكفر بها وببرامجها، فتكون العواقب التي لا يعرف أحد مداها ولا حدودها.. هذه الحدود التي قد تكون وفي رأيي المتواضع انتفاضة ثالثة، لكنها هذه المرة لن تكون على الاحتلال وحده بل على الوضع المأساوي الذي وصلت إليه الحالة الفلسطينية والمتسبب بها.. ذلك كله وارد وبقوة إن بقيت هذه الفصائل وعملها مرهون بجني الثمار قبل الانتصار..

نشرت في القدس العربي، دنيا الوطن – ٢٠٠٩ م